

١ - العبـــــــور

ومرت الأيام الأولى من شهر رمضان المبارك ، وهو الشهر الذي يتميز بسمات دينية ذوات طابع خاص . واستعد البعض لتأدية « العمرة » في الأراضي المقدسة بما في ذلك رجال القوات المسلحة الذين قبلت طلباتهم لتأديتها .

وأحس الشعب بأن قواتنا المسلحة تقوم « بمناورة للتدريب » حيث الآباء والأبناء من الضباط والجنود مشغولون نهاراً وليلاً في هذه المناورة .

وأصبح مؤكداً للشعب والسفارات الأجنبية بالقاهرة أن المناورة تطلبت استدعاء رجال الاحتياطي للاشتراك فيها . ولما عاد الالوف منهم لأعمالهم العادية ، اقتنع الجميع بأن فترة التدريب قد انتهت بالنسبة لبعضهم ، وأنها على وشك الانتهاء بالنسبة للباقي منهم .

وفي منطقة قناة السويس كانت الحياة تسير عادية ، وتقوم الشركات المدنية بعملها العادي خصوصاً تلك الشركات التي تقوم بتنفيذ أعمال لصالح الجيش خلف الخطوط الأمامية مباشرة .

أما الدول العربية المطلة على البحر الأحمر فقد شاهدت المدمرات المصرية تقوم بزيارة ودية لموانيها في طريقها إلى احدى الدول الآسيوية ، وتكون في ميناء عدن يوم ٥ أكتوبر .

وفي الولايات المتحدة كان الرئيس نكسون خارج واشنطن لقضاء فترة راحة ، بينما

كان الدكتور هنرى كسنجر وزير الخارجية ومستشار الأمن القومى فى نيويورك لحضور اجتماعات الأمم المتحدة .

عبور القناة مستحيل :

وفى إسرائيل كانت القيادتان السياسية والعسكرية تناقش الموقف يوم ٥ أكتوبر ، إلا أن الشك كان يراود السيدة مائير رئيسة الوزراء . بعد انتهاء المناقشة استدعت الجنرال اليعازار رئيس الأركان الإسرائيلى إلى منزلها فى نفس اليوم ليلاً لإعادة تقييم الموقف ، وأرادت أن تطمئن منه على أن القوات المسلحة المصرية غير قادرة على اقتحام وعبور القناة . وبعد ان أخبرها الجنرال اليعازار بالآراء ووجهات النظر ، ختمت مائير حديثها معه بالسؤال الآتى :

« هل تعتقد أن فى إمكان المصريين عبور القناة ؟ إن هذا هو الأمر الهام فى أى أحداث يمكن أن تقع . إنى اسألك بصفتك رجلاً عسكريا . أريد أن أتأكد منك بالذات ، بعد أن أكد لى الجنرال بارليف منذ دقائق أن عبور المصريين القناة أمر مستحيل ، فإنه أعدّ قنوات بترولية تعمل فى دقائق فيتحول كل شبر فى خط المواجهة فى منطقة القناة إلى كتلة حريق قاتلة » .

رد عليها اليعازار بقوله :

« المعروف دولياً أن أصعب الموانع المائية فى العالم إثنان لا ثالث لهما ، وهما قناة السويس وقناة بنما وذلك لطبيعة المياه والعمق والعرض . وإذا أضفنا لذلك كله المواقع الحصينة فى خط بارليف ، ومواقع الاشعال البترولى ، ثم سمك الساتر الترابى ، فإن ذلك كله - بدون أى تفكير - كافٍ للدلالة على استحالة عبور المصريين لقناة السويس .

وأنا أتفق مع الجنرال ديان على أن أى تحرك عسكرى مصرى لن يكون أو لن يخرج عن نطاق ضربة جوية لمطاراتنا فى الجبهة ومراكز الاتصال والقيادة ، وهذا أمر نتدبره جيداً ونحسب حسابه الدقيق . ثم إن المعروف عن المصرين والسوريين أنهم متدينون بطبيعتهم ، فكيف يقاتلون فى شهر رمضان وهم صائمون .

ثم إن تقاريرنا تشير إلى أن الحالة هادئة جداً على ضفتى القناة »

وفى صباح يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ (١٠ رمضان ١٣٩٣) وصلت القوات المصرية والسورية إلى أقصى درجات استعدادها لبدء الحرب فى التوقيت المحدد طبقاً لخطة الهجوم فى الجبهتين المصرية والسورية التى أطلق عليها اسم (بدر) .

كنا فى مركز عمليات القوات المسلحة نعمل لتنفيذ « مناورة التدريب » ، ولكن الحقيقة كانت عقولنا وجهودنا مركَّزة لتنفيذ العملية الهجومية . وعندما حان الوقت المناسب استبدلت بخرائط ووثائق التدريب خرائط ووثائق الحرب ، وأغلقت الأبواب الحديدية لمركز العمليات لمنع دخول أو خروج أى شخص ضمانا لسرية العمل المنتظر . وكان ذلك إيذانا للجميع بأن الحرب على وشك البدء .

لقد كنا نتلهف على مرور الساعات القليلة الباقية حتى يحين الوقت المحدد لبدء الهجوم . فالقوات فى جبهة القناة على استعداد للهجوم واقتحام قناة السويس ، والطائرات منتشرة فى قواعدها ومطاراتها على أهبة الاستعداد للاقلاع ، والمدمرات جاهزة فى باب المندب والغواصات فى عمق البحار فى مناطق عملياتها ، وقوات الدفاع الجوى فى أقصى درجات استعدادها لتأمين القوات أثناء الهجوم وحماية الأهداف الحيوية بالدولة ، وقوات الصاعقة والمظلات مستعدة للانطلاق .

أخذ الوقت يمر بطيئاً والعيون مركزة لمتابعة كل نشاط للعدو ، والقلوب تتجه نحو القوات التى ستقوم بتنفيذ الهجوم . لقد انتهت مرحلة التخطيط والتحضير وحان وقت التنفيذ .

اتخذ كل فرد فى مركز العمليات مكانه فى صمت ، والعيون كلها مركزة على خرائط العمليات فى يوم كانت تنتظره قواتنا المسلحة والشعب المصرى والشعوب العربية كلها .

وفى صباح ذلك اليوم - ٦ أكتوبر - بدأت فى إسرائيل الاحتفالات بعيد الغفران « يوم كيبور » . وصل الجنرال ديان وزير الدفاع الإسرائيلى ومعه بعض القادة العسكريين لزيارة القوات فى حصون خط بارليف على الضفة الشرقية للقناة للاطمئنان على الموقف وتهنئة قواته بالعيد . شاهد ديان بنفسه الموقف على الضفة الغربية للقناة من أحد أبراج المراقبة ، فرأى الجنود المصريين ، يستلقى بعضهم فى استرخاء على شاطىء القناة ، ويلعب بعضهم الكرة ، ويسبح البعض الآخر فى مياه القناة . اطمأن

ديان إلى أن كل شيء عادى وهادىء ، وعاد إلى تل أبيب مطمئنا مرتاحاً لتلقى تهانى زملائه بعيد الغفران .

وفى حوالى الساعة الواحدة ظهراً ، وصل الرئيس الراحل السادات مرتدياً ملابسه العسكرية ومعه الفريق أول أحمد إسماعيل ، واتخذ كل منهما مكانه فى مركز العمليات فى انتظار الساعة التى تدق إعلاناً ببدء الحرب فى الساعة ١٤,٠٥ (الثانية وخمس دقائق ظهراً) يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ الموافق ١٠ رمضان ١٣٩٣ .

وفجأة حدث الانفجار .

الانفجـــار :

عندما أشارت عقارب الساعة إلى الساعة الثانية وخمس دقائق ظهراً ، نشبت الحرب فجأة بمبادأة من مصر وسوريا فى وقت واحد ضد العدو الإسرائيلى . وبذلك انطلقت الشرارة فى الشرق الأوسط لتحرق الظلم والعدوان الذى أصابتنا به إسرائيل منذ إنشائها فى حروب متتالية واعتداءات متكررة كان آخرها حرب يونيو ١٩٦٧ .

لقد أشار الرئيس السادات للعملية الهجومية (بدر) إلى أنها الشرارة التى اشتعلت فى المنطقة . وأعتقد الكثيرون أن كلمة « الشرارة » هى الاسم الرمزى لهذه العملية ، وأصبحت تكتب فى بعض الكتب المصرية والأجنبية بهذا الاسم ، وهو غير صحيح . وسوف يسجل التاريخ أن خطة الحرب المصرية السورية هى (بدر) . أما الخطة المصرية للهجوم فى سيناء والخطة السورية للهجوم فى الجولان فلكل منهما اسم رمزى منفصل ، وهذا هو الوضع الطبيعى لاختلاف طبيعة الحرب فى كل جبهة عن الأخرى ، وإن كان التعاون والتنسيق بينهما كاملاً .

وفى مصر ظهرت بعض المذكرات والكتب تقول إنه كان هناك « الخطة ٢٠٠ » التى وضعت عام ١٩٧٠ لتحرير سيناء خلال ١٢ يوماً ، إلا أن الظروف فى ذلك الوقت لم تسمح بتنفيذها . لقد ظهر اسم هذه الخطة والغرض منها فى مذكرات أحد القادة العسكريين المصريين السابقين ، ومن هنا نُقلت إلى مذكرات وكتب أخرى . وسوف يسجل التاريخ أيضاً أن « الخطة ٢٠٠ » كانت خطة دفاعية عن منطقة قناة السويس ، وضعت بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، واشتركت فى وضعها عندما كنت أعمل

رئيساً لأركان جبهة قناة السويس فى ذلك الوقت ، ووثائقها موجودة فى وزارة الدفاع .

ويقول الفريق سعد الدين الشاذلى ، فى مذكراته « لم يكن لدينا حتى منتصف مايو ١٩٧١ خطة لتحرير سيناء ... وعندما عُين رئيساً للأركان فى مايو ١٩٧١ لم يكن هناك خطة هجومية . كان لدينا خطة دفاعية تسمى الخطة ٢٠٠ » .

ويقول الرئيس السادات فى مذكراته – البحث عن الذات – « إن الخطة الدفاعية ٢٠٠ التى تسلمتها من عبد الناصر قد انهارت ... فقبل أن يموت عبد الناصر بشهر واحد دعانى وذهبنا معاً إلى مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة ، وهناك جمع القادة المصريين والخبراء السوفيت ومحمد فوزى وزير الحربية فى ذلك الوقت . ووقف القادة المصريون والخبراء السوفيت لمدة ٧ ساعات أمام عبد الناصر وأمامى يشرحون الخطة الدفاعية ٢٠٠ التى أقرها الجميع . كان هذا هو الوضع العسكرى الذى تسلمته من عبد الناصر ... خطة دفاعية سليمة ١٠٠٪ ولكن لا وجود لخطة هجومية » .

□ □ □

عندما نشبت الحرب يوم ٦ اكتوبر ، كانت قواتنا الجوية تهاجم الأهداف الإسرائيلية فى سيناء ، بينما كانت القوات الجوية السورية تهاجم أهداف العدو فى الجولان . وكانت المدفعية فى الجبهتين تقصف بنيرانها الكثيفة الأهداف الإسرائيلية المحددة لها . وقامت قواتنا باقتحام قناة السويس ومهاجمة القوات المعادية فى سيناء ، بينما اقتحمت القوات السورية دفاعات العدو فى الجولان .

تتابعت الأحداث فى اليوم الأول للقتال بشكل مثير ، واشتملت على مفاجآت استراتيجية وتعبوية وتكتيكية ، ومفاجآت فنية وهندسية غير متوقعة ، وأعمال قتال غير نمطية ، وتحققت نتائج إيجابية وسلبية حددت مسار الحرب فى المرحلة الافتتاحية منها .

وكانت النتائج السياسية للهجوم المصرى والسورى يوم ٦ اكتوبر ، وفى المرحلة الافتتاحية للعمليات ، ذوات أثر عميق وصدى كبير على المستوى العربى والدولى . كما كان لها تأثير ضخم على إسرائيل التى تحققت – لأول مرة – أنها تخوض حربا فى جبهتين فى وقت واحد ، وهى حرب تختلف عن كل الحروب السابقة . واستمر القتال الضارى لمدة ٢٣ يوما حتى يوم ٢٨ اكتوبر ١٩٧٣ .

الضربة الجوية الأولى :

لقد بدأت البلاغات تصل إلى القيادة العسكرية الإسرائيلية فى تل أبيب من قواتها فى سيناء والجولان ، تفيد بأن تشكيلات جوية مصرية يقدر عددها بأكثر من مائتى طائرة قد هاجمت مواقعهم فى سيناء وأن الطائرات السورية ويقدر عددها بحوالى ١٠٠ طائرة قد هاجمت فى الوقت نفسه مواقعهم فى الجولان وجبل الشيخ . أصبح واضحا أمام القيادة الإسرائيلية أن هذا الحشد الكبير من الطائرات لم يسبق له مثيل فى أى حرب سابقة فى الجبهتين المصرية والسورية ، ومما يلفت النظر أن الهجمات الجوية تمت فى وقت واحد .

إنها الضربة الجوية الأولى التى نفذت فى الساعة الثانية وخمس دقائق ظهرا .

ففى الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم - ٦ اكتوبر - عبرت الطائرات المصرية خط جبهة قناة السويس متجهة إلى عدة أهداف إسرائيلية محددة فى سيناء . وأحدث عبور قواتنا الجوية خط القناة بهذا الحشد الكبير ، وهى تطير على ارتفاع منخفض جدا ، أثره الكبير على قواتنا البرية بالجبهة وعلى قوات العدو . فقد التهبت مشاعر قوات الجبهة بالحماس والثقة بينما دب الذعر والهلع فى نفوس أفراد العدو .

هاجمت طائراتنا ثلاث قواعد ومطارات ، وعشرة مواقع صواريخ مضادة للطائرات من طراز هوك ، وثلاثة مراكز قيادة ، وعدداً من محطات الرادار ومرابض المدفعية بعيدة المدى . وكانت مهاجمة جميع الأهداف المعادية فى سيناء تتم فى وقت واحد ، بعد أن أقلعت الطائرات من المطارات والقواعد الجوية المختلفة وتطير على ارتفاعات منخفضة جدا فى خطوط طيران مختلفة لتصل كلها إلى أهدافها فى الوقت المحدد لها تماما .

كانت قلوبنا فى مركز عمليات القوات المسلحة تتجه إلى القوات الجوية ننتظر منها نتائج الضربة الجوية الأولى ، وننتظر عودة الطائرات إلى قواعدها لتكون مستعدة للمهام التالية . كما كان دعاؤنا للطيارين بالتوفيق ، وأن تكون خسائرهم أقل ما يمكن ، لأن مثل هذه الضربة الجوية بهذا العدد الكبير من الطائرات ضد أهداف هامة للعدو تحت حماية الدفاع الجوى المعادى ، ينتظر أن يترتب عليها خسائر كثيرة فى الطيارين والطائرات يصعب علينا تعويضها .

لقد حققت قواتنا الجوية بقيادة اللواء طيار محمد حسنى مبارك نجاحا كبيراً فى توجيه هذه الضربة ، وما حققته فيها من نتائج بأقل الخسائر التى وصلت فى الطائرات إلى خمس طائرات فقط ، وهى نسبة من الخسائر أقل جداً مما توقعه الكثيرون . ولا شك أن هذه النتيجة عكست الجهد الكبير الذى بذلته القوات الجوية فى التحضير والاعداد والتخطيط خلال فترة ما قبل الحرب ، حتى وصلت إلى هذه النتيجة أثناء الحرب .

بهذه الضربة الجوية ، والمعارك الجوية ومهام القتال الأخرى أثناء الحرب ، استعادت قواتنا الجوية كرامتها وثقتها بنفسها وثقة كل القوات المسلحة بها . هذه الكرامة التى كانت أهدرت ، وهذه الثقة التى كانت قد فقدت ، فى الظروف السيئة التى مرت بها مصر والدول العربية منذ ست سنوات مضت خلال حرب يونيو ١٩٦٧ .

المشاة والصاعقة يقتحمون :

فى نفس الوقت الذى كانت قواتنا الجوية تهاجم أهدافها فى عمق سيناء ، كان هناك أكثر من ٢٠٠٠ مدفع على طول جبهة القناة من مختلف الأعيرة ومجموعة من الصواريخ التكنيكية أرض - أرض تفتح نيرانها ضد الأهداف الإسرائيلية فى حصون خط بارليف وما خلف هذا الخط من مواقع دفاعية ومواقع المدفعية ، واستمر القصف لمدة ٥٣ دقيقة . وكان معدل قصف النيران شديداً بحيث سقط على المواقع الإسرائيلية فى الدقيقة الأولى ١٠٥٠٠ (عشرة آلاف وخسمائة) دانة مدفعية بمعدل ١٧٥ دانة فى الثانية الواحدة .

كانت نتائج هذا « التمهيد النيرانى » مؤثرة بشكل فعال أوقعت بالعدو خسائر كبيرة فى الأرواح والمعدات . وعاونت هذه النيران فى منع دبابات العدو من صعود الساتر الترابى لاحتلال المصاطب السابق تجهيزها حيث تطلق النيران على قواتنا أثناء عبورها القناة فى القوارب .

وقد أدت الهجمات الجوية والقصفات الصاروخية التكتيكية التى وجهت ضد مراكز القيادة والسيطرة للعدو ومراكز الاعاقة فى جبل أم خشيب - بمنطقة الممرات - إلى إرباك سيطرة العدو على قواته ، وأفقدت القيادات الإسرائيلية المحلية القدرة على التصرف

وتحت ستر نيران المدفعية ، وفي مواجهة النيران الصادرة عن حصون العدو على الضفة الشرقية للقناة ، اقتحمت قوات الجيش الثانى بقيادة اللواء سعد الدين مأمون وقوات الجيش الثالث بقيادة اللواء عبد المنعم واصل قناة السويس فى موجات متتالية على امتداد القناة من بورسعيد شمالاً إلى السويس جنوباً فى قطاعات العبور المحددة لها ، وهم يصيحون أثناء الاقتحام بنداء « الله أكبر .. الله أكبر » وهو دعاء صادر عن القلوب له معنى عميق .

وانطلق المقاتلون من المشاة والصاعقة يصعدون الساتر الترابى العالى على الضفة الشرقية بوسائل تسلق مبتكرة مصنوعة محلياً عبارة عن سلالم من الحبال ، ثم يقاتلون العدو الذى كان يواجههم سواء فى حصون خط بارليف أو حولها . وكان رجال الصاعقة ينقدمون الموجات الأولى للاقتحام لكي تسبق العدو فى احتلال المصاطب والمواقع الموجودة خلف خط بارليف بحوالى كيلومتر إلى كيلومترين لمنع دبابات العدو من احتلالها أو التقدم لتدعيم قوات الحصون وكذا القيام ببث الالغام فى المصاطب التى قد تصل إليها الدبابات المعادية .

قاتل الإسرائيليون بشدة تحميهم حصونهم ، واندفعت دباباتهم — من الاحتياطى القريب — لمواجهة قواتنا المهاجمة من رجال المشاة والصاعقة ، فوجدوا أمامهم رجال المدفعية المسلحين بالمقذوفات الموجهة المضادة للدبابات — إحدى مفاجآت هذه الحرب — يدمرون الدبابات المعادية جنبا إلى جنب مع قوات المشاة فى تلك الفترة الحرجة التى كان على المشاة قتال الدبابات الإسرائيلية عدة ساعات حتى يتم عبور دباباتنا ومدفعيتنا والأسلحة الثقيلة إلى الضفة الشرقية للقناة ، وهكذا دار القتال بشدة حيث قتل من الإسرائيليين من تشبث بمواقعه ، وتمكن بعضهم من الهروب من الحصون ليلاً ، ووقع فى الأسر البعض الآخر ، كما استشهد لنا بعض المقاتلين .

استمر تدفق قواتنا شرقاً — عبر القناة — فى موجات متتالية من القوارب المصنوعة من المطاط والخشب . وكان لنا على الضفة الشرقية للقناة فى الدقائق الأولى حوالى ٨٠٠٠ (ثمانية آلاف) مقاتل ، ارتفع عددهم بعد ساعة ونصف ليكون حوالى ١٤٠٠٠ (أربعة عشر ألفاً) ، ثم أصبح عددهم حوالى ٣٣٠٠٠ (ثلاثة وثلاثين ألف) مقاتل بعد خمس ساعات أى فى الساعة ١٧,٣٠ (الخامسة والنصف مساء) وهكذا ... وقد استخدمت القوات حوالى ٧٥٠ (سبعمائة وخمسين) قارباً فى عملية الاقتحام ، كما

استخدمت حوالى ١٥٠٠ (ألف وخمسمائة) من سلالم الحبال لتسلق الساتر الترابى العالى على الضفة الشرقية .

وفى الوقت الذى كان يتم فيه اقتحام القناة بواسطة المشاة ، كانت بعض الدبابات البرمائية والمركبات البرمائية قد عبرت البحيرات المرة فى قطاع الجيش الثالث والبعض الآخر قد عبر بحيرة التمساح فى قطاع الجيش الثانى . ولو أن عددها كان صغيراً إلا أن تأثيرها كان أكبر .

□ □ □

ومن الملامح البارزة فى قتال هذا اليوم – وطول مدة الحرب – أن القادة كانوا يضربون القدوة والمثل لرجالهم ، يتقدمون جنودهم ، ويقاتلون معهم فى الخطوط الأمامية ، ويستشهدون بينهم . ويكفى أن نعلم أن الضباط قادة الفصائل والسرايا عبروا فى الدقائق الأولى ، وأن قادة الكتائب قد عبروا خلال ١٥ دقيقة (خمس عشرة دقيقة) من بدء القتال ، وعبر قادة اللواءات خلال ٤٥ دقيقة (خمس وأربعين دقيقة) ، وقادة الفرق خلال ساعة ونصف من بدء الحرب . ولذلك كانت نسبة الخسائر فى الضباط والقادة عالية عن المعدل ، إلا أن الاصرار على تنفيذ المهام كان يتطلب منهم ذلك . وفى سبيل النصر وتحرير الأرض تهون الأرواح .

ورفع جنود مصر « علم مصر » على أرض سيناء فوق أنقاض حصون ومواقع العدو فى خط بارليف رمز القوة والمناعة لإسرائيل ، ورمز الإهانة لمصر . ويمكننا أن نتصور اندفاع قواتنا لتأدية مهامها القتالية ، والتضحية بأرواحهم ، بروح معنوية عالية عندما أعادوا رفع « علم مصر » على جزء من أرضها المقدسة ظل غائباً عنها ست سنوات .

كنا نتابع الاقتحام والعبور أولاً بأول فى مركز العمليات ، وكانت فرحتنا شديدة عندما وصلنا نبأ رفع أول علم مصرى على الضفة الشرقية للقناة . وتوالت البلاغات من قيادة الجيشين عن النجاح الذى تحققه قواتهما . وعندما اطمأن الرئيس السادات إلى النجاح الذى تم ، أمر – وهو داخل مركز العمليات – بإذاعة البيان العسكرى الأول من دار الإذاعة المصرية . صدر هذا البيان فى الساعة ١٤,١٠ (الثانية وعشر دقائق) وكان نصه :

« قام العدو فى الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر اليوم بمهاجمة قواتنا بمنطقتى

الزعفرانه والسمخنه بخليج السويس بواسطة عدة تشكيلات من قواته الجوية عندما كانت بعض زوارقه البحرية تقترب من الساحل الغربى للخليج ، وتقوم قواتنا -حاليا بالتصدى للقوات المغيرة » .

وتوالت البيانات العسكرية موضحة الموقف إلى أن صدر البيان الخامس فى الساعة ١٦,٠٠ (الرابعة بعد الظهر) وكان نصه :

« نجحت قواتنا فى اقتحام قناة السويس فى قطاعات عديدة ، واستولت على نقط العدو القوية بها ، ورفع علم مصر على الضفة الشرقية للقناة . كما قامت القوات المسلحة السورية بإقتحام مواقع العدو فى مواجهتها وحققت نجاحاً مماثلاً فى قطاعات مختلفة » .

وفى إسرائيل ، كانت القيادة العسكرية تتابع الموقف من « غرفة العمليات الرئيسية » . وكان من الطبيعى أن تصلها البلاغات من قواتها بسيناء عن مئات القوارب التى تحمل القوات المصرية لعبور القناة إلى الشاطىء الشرقى ، وأن بعض حصون خط بارليف قد سقطت أو حوصرت ، وأن « العلم المصرى » ارتفع عاليا على أرضه فى سيناء . لقد اقتنعت القيادة الإسرائيلية بأن القتال امتد ليشمل كل جبهة القناة ، وقدرت أن قواتنا التى عبرت – المشاه والصاعقة – لا يمكنها أن تبقى مدة طويلة على الضفة الشرقية للقناة دون عبور الأسلحة الثقيلة والمدرعات والوحدات الميكانيكية للانضمام إليها . ولذلك قررت القيادة الإسرائيلية سرعة القيام بهجوم مضاد ضد القوات المصرية التى عبرت لتدميرها قبل تثبيت أقدامها . وكانت قواتنا قد أصبحت على عمق ٣ – ٤ كيلومترات شرق القناة فى الساعة الخامسة والنصف مساء تشمل حوالى ٤٥ كتيبة مشاة قوامها حوالى ٣٣٠٠٠ ثلاثة وثلاثين ألف مقاتل ، وهى قادرة على صد هجمات العدو المضادة .

الصاروخ ضد الدبابة :

واستمر القتال . وكان على رجال المشاة الذين اقتحموا القناة أن يقاتلوا على الضفة الشرقية للقناة بعمق عدة كيلومترات لحصار الحصون الإسرائيلية حتى تضعف أو تزيل بعض النقط القوية التى كانت تتشبث بمواقعها وتستخدم أسلحتها بفعالية . وفى نفس الوقت كانت قواتنا تتولى صد هجمات العدو المضادة بدباباته .

كان ذلك من أصعب المواقف التى تواجه الرجال ، وهى الفترة الحرجة التى كان عليهم أن يقاتلوا دبابات العدو لمدة ٦ – ٨ ساعات حتى تنضم إليهم الأسلحة الثقيلة من الدبابات والأسلحة الأخرى بعد عبورها على المعديات والكبارى ، وقد تطول المدة إذا تأخر إنشاء بعض المعابر أو تعطل تشغيلها .

إن قتال المشاة ضد الدبابات هو قتال غير تقليدى يتطلب مهارة وشجاعة كبيرة . وكان أمام المشاة بعد ظهر ذلك اليوم بالجبهة حوالى ٣٠٠ (ثلاثمائة) دبابة إسرائيلية موزعة على طول الجبهة حيث يقوم بعضها بالقتال بالسرايا وبعضها يعمل فى الاحتياط . وكان فى تقديرنا فى القيادة العامة فى مرحلة التخطيط أن العدو لا بد أن يقوم بمثل هذه الهجمات المضادة العاجلة ، ومن هنا فقد كان تسليح قوات المشاة التى عبرت يشمل « صواريخ موجهة مضادة للدبابات » بالاضافة للاسلحة الأخرى المضادة للدبابات . وقد تمكنت قوات المشاة والصاعقة من تدمير حوالى ١٠٠ دبابة (مائة دبابة) – ثلث الدبابات المعادية فى الخطوط الأمامية – بمعاونة من نيران المدفعية الموجودة على الضفة الغربية للقناة ، وبذلك أمكن صد الهجمات المضادة للعدو فى القطاعات المختلفة . وفى نفس الوقت كان هذا القتال يؤمن عمل رجال المهندسين فى فتح الممرات فى الساتر الترابى تمهيداً لتشغيل المعديات وإنشاء الكبارى .

النيران فوق سطح مياه القناة :

وكانت إسرائيل قد جهزت مواقعها الحصينة على الضفة الشرقية للقناة بخزانات من الوقود ومواد الاشعال – مغطاة تحت سطح الأرض – يخرج منها مواسير إلى القناة ، يتسرب منها البترول الذى يشعل كهربائياً من داخل المواقع ، فتغطى النيران الشديدة سطح المياه لتحرق الأفراد وقوارب الاقتحام المصنوعة من المطاط والخشب أثناء العبور . وتصبح فى هذه الحالة مفاجأة فنية ضد قواتنا لم نعمل حسابها .

وجدير بالذكر ، أن الفكرة الإسرائيلية جيدة ومؤثرة جداً لعرقلة هجوم قواتنا فى بعض القطاعات ، ومنعه تماما فى القطاعات الأخرى ، بالاضافة للخسائر الجسيمة التى تتكبدها قوات الاقتحام .

حاولنا إبطال مفعول هذه الوسيلة أثناء التحضير للحرب بطرق مختلفة لم تحقق النتائج المرجوة . واستقر الفكر العسكرى المصرى على إبطال مفعولها بمعرفة رجال المهندسين بوسائل حددوها . لقد قامت بعض مجموعات من المهندسين ليلة ٥/٦ أكتوبر بالعوم تحت سطح المياه لتنفيذ هذه المهمة . تنفسنا الصعداء عندما نجحت هذه المجموعات فى تنفيذ هذا العمل الهام دون أن يشعر به العدو . ولزيادة الاطمئنان والتأكيد تسللت مجموعات من رجال المهندسين يوم ٦ أكتوبر – تحت ستر نيران المدفعية – إلى الشاطىء الشرقى للقناة للتأكد من أن مواسير نقل السائل التى أغلقت فى اليوم السابق لا تزال مغلقة .

أصيب الإسرائيليون بالاحباط عندما حاولوا استخدام هذه الوسيلة أثناء عبور قواتنا ، فوجودها معطلة لا تعمل . وكانت إسرائيل قد أرسلت بعض المهندسين إلى المواقع الأمامية للتأكد من صلاحية وسائل إشعال النيران وأنها تعمل بكفاءة . كانت الحرب قد نشبت فوقعوا فى الأسر .

ومن الملاحظ أن الكتب والمقالات والمذكرات الإسرائيلية تجاهلت هذا الموضوع تماما . ويبدو أن الاخفاق الإسرائيلى فى تنفيذ هذا المخطط جعلهم لا يتكلمون عنه . ومن المؤكد أن هذه الفكرة – لو نجحت – لظهر « سوبرمان إسرائيلى » أو عبقرى نسجت حوله القصص .

وهنا لا بد من تسجيل العمل الممتاز الذى قامت به إدارة المخابرات الحربية . حيث تمكنت من اكتشاف تجهيز العدو لهذه الوسيلة الخطيرة – فى وقت مبكر قبل الحرب – وبالتالى أمكن وضع خطة التغلب عليها وإحباط مفعولها .

الصاعقة فى عمق سيناء :

وقبل آخر ضوء يوم ٦ أكتوبر ، وبينما كان القتال دائراً فى شرق القناة ، هبطت وحدات الصاعقة من طائرات الهليوكبتر فى عمق سيناء ، لبث الذعر فى المواقع الخلفية للعدو ، وتعطيل تحرك قواته الاحتياطية فى اتجاه القناة . لقد كان للمهارة والجرأة التى اتسمت بها وعُرفت عن وحدات الصاعقة أثر كبير فى إرباك وتعطيل تقدم احتياطيات العدو على المحاور الرئيسية ، وتكبيده الخسائر فى المعدات والأفراد .

لقد قامت قوات الصاعقة بعمل جسور فدائى لتنفيذ المهام المكلفة بها . وفى سبيل ذلك تكبدت الخسائر بعد أن أرهقت القوات الإسرائيلية اثناء تقدمها فى اتجاه القناة . وقد خسرنا بعض طائرات الهليوكبتر بعد اكتشافها بواسطة المقاتلات الإسرائيلية التى قامت بتدمير عدد منها أثناء وجودها على الأرض بعد نزول رجال الصاعقة منها وقبل إقلاعها .

ولعل من أهم العمليات التى قامت بها وحدات الصاعقة ، هو تمسك إحدى مجموعاتها بمضيق « سدر » لمدة ١٦ يوماً ، حرمت فيه احتياطيات العدو من اجتياز المضيق ، برغم القتال الذى خاضته والصعوبات التى واجهتها اثناء وجودها فى عمق مواقع وقوات العدو . وبإرادة الله وعزم الرجال عادت هذه المجموعة وانضمت إلى قوات الجيش الثالث شرق القناة ، بعد أن فقدنا الأمل فى عودتها ، لتعطى مثلاً بارزاً على إرادة القتال والاصرار العنيد على تنفيذ المهام مهما كانت المصاعب .

لقد تعددت مهام الصاعقة بقيادة العميد نبيل شكرى فى حرب أكتوبر منذ الدقائق الأولى للقتال ، حيث كانت وحداتها تعمل ضمن قوات الجيشين الثانى والثالث بالاضافة للمهام الأخرى التى كلفت بها خلال الحرب منذ بدايتها حتى نهايتها .

وقد صدر بيان عن المتحدث العسكرى الإسرائيلى فى اليوم الثانى للقتال – ٧ أكتوبر – جاء فيه إن القوات الإسرائيلية التى تقاتل على طول جبهة القناة ، وجدت نفسها مشتبكة فى نفس الوقت فى معارك أخرى مع الكوماندوز المصريين الذين أنزلوا فى العمق وراء الخطوط الإسرائيلية .

المهندسون يعملون :

فى الوقت الذى كانت فيه المعارك مستمرة على الضفة الشرقية للقناة وبعمق عدة كيلومترات قليلة فى سيناء ، شاهدت القوات الإسرائيلية وتتبعت رجال المهندسين المصريين ، وهم يقومون بأروع عمل هندسى يتم طبقاً لخطة محكمة وتنفيذ دقيق .

عبر عدد كبير من رجال المهندسين ضمن الموجات الأولى للاقتحام فى قوارب ، يحملون معهم أسلحتهم ومعداتهم الفنية . كانت أهم هذه المعدات مضخات مياه تندفع منها المياه بقوة شديدة تشق الساتر الترابى العالى لعمل فتحات (ممرات) فيه تسمح بتشغيل المعديات وإقامة الكبارى .

كان رجال المهندسين يعملون تحت تهديد نيران العدو ، بينما وجوههم وأجسامهم مغطاة بالطين ، والمضخات التي سميت (مدافع المياه) في أيديهم يشقون الساتر الترابي . لقد استخدموا ٣٥٠ (ثلاثمائة وخمسين) مضخمة مياه في مواجهة الجيشين للقيام بهذا العمل ، وكلما سقط شهيد أو جريح منهم حل محله مقاتل آخر فوراً واستمر العمل .

تمكن هؤلاء الرجال من فتح أكثر من ثلاثين ممراً خلال عدة ساعات منذ بدء القتال ، يتهايل من كل ممر (فتحة) ١٥٠٠ (ألف وخمسمائة) متر مكعب من الرمال ، واستمروا في عملهم حتى فتحوا باقي الممرات المطلوبة . وعندما وصل عدد الممرات التي تم إنجاز العمل فيها إلى ستين ممراً ، كان المهندسون قد قاموا بتجريف ٩٠٠٠٠ (تسعين ألف) متر مكعب من الرمال . كان هناك إصرار تام من جانبنا على فتح الممرات التي يستتبعها تشغيل المعديات وإقامة الكباري حيث تتدفق عليها القوات .

ويقول الجنرال اليعازار رئيس الأركان الإسرائيلي في مذكراته :

« كانت أخطر الاشارات التي وصلتنا حينئذ ، هي التي أفادت أن المصريين بدءوا في عمل ممرات في السواتر الترابية السميكة ، باستخدام قوة دفع المياه عن طريق مضخات خاصة كانوا يستخدمونها تحت ستار كثيف من نيران المدفعية والمشاه ، كما بدءوا يسقطون معديات ومعدات عبور أمام رءوس الكباري . وفعلاً كانت تلك الاشارة هي أخطر الاشارات لأنها تعني أن أي تقدير للعمل العسكري الذي تقوم به مصر وسوريا أصبح تقديراً متأخراً .

في هذا الوقت جن جنوننا ، فأصدرنا أوامرنا بأن يكثف سلاحنا الجوي هجومه في محاولة لمنع المصريين من عمل الممرات خلال السواتر ، وتعطيل إسقاط المعديات والكباري . ولكن وسائل الدفاع الجوي المصري المجهزة بصواريخ سام — ٦ أسقطت لنا خلال أربع دقائق خمس طائرات منها إثنتان طراز فانتوم وثلاث سكاي هوك » .

إنشاء الكبارى :

وبدأ رجال المهندسين فى إنشاء الكبارى فى المواقع المحددة لها على القناة . وكما كان النجاح فى فتح الممرات فى الساتر الترابى أمراً ضرورياً لتشغيل المعديات وإنشاء الكبارى ، فقد كان إنشاء الكبارى أمراً مُحتما لنجاح العملية الهجومية . ومن هنا كان عمل وحدات المهندسين سواء لفتح الممرات أو إنشاء الكبارى من أهم وأخطر مراحل الاقتحام والهجوم .

كنا نتوقع أن يستميت العدو لمنع إنشاء الكبارى ، وتدمير ما يتم إنشاؤه منها بكل وسائل النيران بالطيران والمدفعية ، حتى يمكنه عزل قواتنا التى عبرت القناة ومنع تدفق الدبابات والمدفعية والأسلحة الأخرى للشرق ، وبالتالى يصبح لدى العدو الوقت الكافى لتدمير قواتنا المشاة بدباباته .

تابع الإسرائيليون مراحل الانشاء وتدخلوا فيها بالنيران . وتملكتهم الدهشة عندما نجح رجال المهندسين المصريين فى إقامة الكبارى برغم الصعوبات الفنية التى تواجههم تحت تهديد نيران العدو وأصبحت الكبارى حقيقة أمامهم خلال ثمانى ساعات .

لقد تأخر فتح بعض الممرات فى الساتر الترابى ، وبالتالى تأخر إقامة إثنين من الكبارى فى القطاع الجنوبى من القناة فى مواجهة الجيش الثالث لصعوبة التربة الطفلية هناك ، فضلاً عن أن تدخل العدو بالنيران كان شديداً فى هذا القطاع . ولذلك طلب الفريق أول أحمد إسماعيل من اللواء جمال محمد على مدير المهندسين أن يتوجه بنفسه من مركز عمليات القوات المسلحة إلى هذا القطاع للاشراف على تنفيذ هذا العمل إلى أن تم بنجاح كبير بعد مجهود شاق وبتأخير عن ميعاده المحدد والمقرر مسبقاً . وكان من الضرورى أيضاً أن تقوم قيادة الجيش الثالث بتحويل مرور القوات إلى الكبارى التى أنشئت لضمان استمرار تدفق القوات شرقاً ، حتى تم استكمال إنشاء الكبارى التى تأخر إنشاؤها .

ولم يقتصر الأمر على إنشاء « الكبارى الثقيلة » بل أقام المهندسون – طبقاً للخطة – عدداً مماثلاً من « الكبارى الخفيفة » لعبور العربات الخفيفة عليها ، وفى نفس الوقت تجذب نيران مدفعية العدو وقنابل وصواريخ طائراته بعيداً عن الكبارى

الثقيلة . لقد اعتقدت القوات الإسرائيلية أنها أصابت ودمرت عدداً من الكبارى وعطلت العبور ، إلا أن الحقيقة كانت تخالف ذلك . فقد قامت قواتنا بتغطية مناطق الكبارى – طبقاً للمخطط – بسُتائر من الدخان لتعمية الإسرائيليين ، مما جعل نيرانهم ضد الكبارى ليست بالدقة المطلوبة ، إلا أن ذلك لم يمنع محاولاتهم لعرقلة ومنع إقامتها وإصابة بعضها بالنيران أثناء عملية الانشاء والتشغيل .

□ □ □

تكبد رجال المهندسين نسبة عالية من الخسائر أثناء فتح الممرات فى الساتر الترابى وإنشاء الكبارى ، إلا أنهم ضربوا المثل فى الاصرار على تنفيذ المهام والتضحية بالنفس فى سبيل الواجب . واستشهد منهم أحد قادة المهندسين البارزين هو العميد أحمد حمدى الذى أطلق إسمه على نفق فى قناة السويس – بعد الحرب – هو « نفق الشهيد أحمد حمدى » .

لقد أحزننى خبر استشهاده ، لأنى عرفته عن قرب أثناء معارك القناة بعد حرب يونيو ٦٧ عندما كنت أعمل رئيساً لأركان جبهة القناة ، وكان يعمل الشهيد أحمد حمدى فى الفرع الهندسى بالجبهة . كان هادئاً فى طباعه ، وعلى درجة عالية من الكفاءة فى عمله الهندسى ، ولديه الاصرار التام على إنجاز مهامه مهما احتاج ذلك من جهد أو وقت . لا أتذكر ، أثناء الخدمة معا ، أنى رأيته فى مقر قيادة الجبهة إلا نادراً ، فقد كنت أراه دائما عائداً فى الساعات المتأخرة من الليل من الخطوط الأمامية بعد أن يكون قد أشرف على تنفيذ عمل هندسى تقوم به القوات أو الوحدات الهندسية .

وبينما كانت الكبارى يجرى إنشاؤها ، كان القتال يدور بشدة شرق القناة . فالهجمات المضادة المعادية ، وقواتنا من المشاة والصاعقة تتصدى لها بثبات وتقوم بتدمير الدبابات الإسرائيلية التى كانت تحاول الوصول إلى خط القناة لمنع إنشاء الكبارى المصرية أو لتخليص جنودهم المحاصرين داخل حصونهم . وكنا نتابع الموقف من مركز العمليات أولاً بأول ، وكان لدينا حساسية شديدة عند إصابة أى كوبرى بنيران العدو لأن عدد الكبارى التى كانت متيسرة لدينا لم تكن متوفرة بالقدر الذى يسمح بوجود احتياطى كاف منها .

ونجح رجال المهندسين فى إنشاء « أول كوبرى ثقيل » فى حوالى الساعة الثامنة والنصف مساء أى بعد حوالى ست ساعات من بدء الاقتحام . وفى حوالى الساعة العاشرة والنصف – بعد ثمانى ساعات من بدء الاقتحام – كان المهندسون قد أتموا إنشاء ثمانية كبارى ثقيلة وأربعة كبارى خفيفة ، كما قاموا ببناء وتشغيل ثلاثين معدية . وأصبحت قواتنا تتدفق عليها شرقاً ، بينما تعمل وحدات إنشاء الكبارى بأقصى طاقتها ، إلى أن أصبح لدينا فيما بعد عشرة كبارى ثقيلة وعشرة كبارى خفيفة . وكان إنجازاً عظيماً لوحدات المهندسين يوم ٦ أكتوبر بعد أن حققوا حتى الساعة العاشرة والنصف مساء أى بعد ثمانى ساعات من بدء القتال :

- فتح ٦٠ فتحة (ممر) فى الساتر الترابى تهايل منها ٩٠ ألف متر مكعب من الرمال .
- إتمام إنشاء ٨ كبارى ثقيلة .
- إتمام بناء ٤ كبارى خفيفة .
- بناء وتشغيل ٣٠ معدية .

وكانت الدبابات والمدافع والأسلحة الأخرى تعبر فوق الكبارى والمعديات بمجرد الانتهاء من انشائها وكانت كلها جاهزة للعمل بأقصى طاقتها فى العاشرة والنصف مساء .

وبذلك نجح عمل عسكرى عظيم فى الخطوط الأمامية بالجبهة تحت تهديد نيران العدو وتحت ستر نيران قواتنا من الضفتين الشرقية والغربية . وكان ذلك عاملاً رئيسياً وحيوياً لنجاح العملية الهجومية مع إقتحام قناة السويس .

الاشارة رقم ٢٢ إلى القيادة الإسرائيلية :

وكان رد الفعل لدى الجانب الإسرائيلى ، كما سجله رئيس الأركان الإسرائيلى – الجنرال اليعازار – كتب فى مذكراته يقول :

" لقد كانت الاشارات تتوالى بشكل مذهل . كنا بقدر الامكان نحاول المحافظة على هدوء أعصابنا واتزان تفكيرنا ، لكننا بعد وصول الاشارة رقم ٢٢ التى أفادت أن المصريين تمكنوا من إنشاء « عشرة كبارى ثقيلة وعشرة كبارى مشاة » ، وأن الدبابات والعربات المجنزرة والمعدات الثقيلة بدأت فى العبور إلى الضفة الشرقية

للقناة ، لم نستطع أن نتوازن بشكل دقيق أو نفكر فى أى شىء ، بل سيطر علينا الذهول المقرون بخيبة الأمل .

وأوشك النهار – يوم ٦ أكتوبر – أن ينتهى دون أن نحقق هجوماً مضادا ناجحا ومؤثراً ، نوقف به تدفق المعدات الثقيلة عبر الكبارى إلى الضفة الشرقية حيث توجد مواقع قواتنا . وكان معنى أن يأتى الليل ويسود الظلام ، أن تنتهى أى فعالية لسلاحنا الجوى فى الوقت الذى تستطيع فيه القوات المصرية تثبيت وتامين هذه الكبارى .

إن الحقائق بدأت تتضح أمامنا شيئاً فشيئاً ، فالاشارات تؤكد أن أكثر من ثلاثين ألفاً من الجنود المصريين أصبحوا يقاتلون فى الضفة الشرقية ، ومازالت المعدات الثقيلة تعبر الكبارى إلى الضفة الشرقية . إن التلاحم بين جنودنا والمصريين معناه أن يفقد سلاحنا الجوى فعاليته ، وأصبح مجموع ما سقط لنا من طائرات حتى الساعة العاشرة وعشر دقائق مساء يوم ٦ أكتوبر هو ٢٥ طائرة ..

أصبح القتال يسير ضاريا شرساً . والدلائل كلها تشير إلى أننا نواجه خطة دقيقة ومحكمة لا نعرف مداها أو أبعادها ، بعد أن أصبحنا أمام واقعين جديدين تماما فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى أديا إلى سقوط كل حساباتنا العسكرية والمقاييس التى بنينا عليها خططنا . وكان الواقع الأول أنه لم يعد هناك حاجز مائى يمنع تدفق المصريين إلى مواقع قواتنا فى الضفة الشرقية للقناة . وكان الواقع الثانى أن حصون خط بارليف المنيعة لم تعد لها فعالية ، ولم تعد هى الخط الدفاعى المأمون بعد أن سقط معظمها ... لقد بدأت بالفعل مواجهة حقيقية بين القوات المصرية وقوات الجيش الإسرائيلى .

لقد كان ما يحدث بالفعل كارثة حقيقية " .

الصاروخ ضد الطائرة [1] :

وبينما كانت المعارك محتدمة على الضفة الشرقية للقناة منذ بدء القتال ، كان هناك صمت وسكون يخيمان على مواقع الدفاع الجوى التى كان رجالها فى حالة تحفز وتركزت أبصارهم على شاشات الرادار .

---

(١) فريق محمد على فهمى – القوة الرابعة – طبعة عربية .

ولم يطل الانتظار ، وجاء العدو الجوى فى التوقيت الذى قدرته قيادة الدفاع الجوى بقيادة اللواء محمد على فهمى . ففى الساعة الثانية وأربعين دقيقة أخذت البلاغات تتوالى من محطات الرادار ونقط الرصد تنذر باقتراب الطائرات المعادية . وانطلقت الصواريخ المضادة للطائرات ، وتهاوت الطائرات المعادية واحدة بعد الأخرى ، وكان ذلك إيذاناً بتحطيم أسطورة التفوق الجوى الإسرائيلى منذ الساعات الأولى للحرب . واستمرالقتال ، فالعدو يدفع بطائراته هنا وهناك لمهاجمة قواتنا التى عبرت ، ويعمل جاهداً لتعطيل فتح الممرات فى الساتر الترابى وعرقلة وتدمير الكبارى التى يجرى إنشاؤها ، وتنكسر تلك الهجمات .

وفى حوالى الساعة الخامسة مساء ، أى بعد ساعتين من الهجمات الجوية المتواصلة ، إلتقطت « الأجهزة الخاصة المصرية » إشارة لاسلكية مفتوحة تحمل أوامر صادرة من الجنرال بنيامين بليد قائد السلاح الجوى الإسرائيلى إلى طياريه يأمرهم بعدم الاقتراب من القناة لمسافة تقل عن ١٥ كيلومتراً شرقاً .

وهكذا قامت قوات الدفاع الجوى بتأمين عملية الاقتحام والهجوم بكفاءة نهاراً وليلاً ، وقدمت الحماية للكبارى والمعابر حيث تعبر عليها القوات شرقاً .

إن هذه النتيجة التى حققتها قوات الدفاع الجوى فى هذه المرحلة الهامة من الحرب ، هى ثمرة جهد طويل لسنوات عديدة بذلها رجال الدفاع الجوى ، حتى أصبح الدفاع الجوى المصرى علامة من العلامات المميزة فى حرب أكتوبر .

القوات البحرية فى البحرين الأحمر والمتوسط :

وقبل بدء الحرب بفترة ما ، كان من الضرورى أن تفتح قواتنا البحرية فى البحرين الأحمر والمتوسط فى سرية تامة .

وفى يوم ٦ أكتوبر اشتركت قواتنا البحرية بقيادة اللواء بحرى فؤاد أبو زكرى بتشكيلاتها المختلفة فى الحرب على جبهة عريضة . فقد قامت هذه القوات فى البحر المتوسط بتوجيه قصفات إلى مناطق شرق بور فؤاد (شرق بورسعيد) ورمانة على الساحل الشمالى لسيناء . أما فى البحر الأحمر فقد تم قصف « شرم الشيخ » ، وفى خليج السويس هاجمت البحرية المناطق والأهداف التى حُددت لها . وقد اشترك فى مهام اليوم الأول للعمليات حوالى خمسين وحدة بحرية .

ولعل من أبرز العمليات التى قامت بها قواتنا البحرية ، كان تمركز بعض وحداتها في مضيق « باب المندب » واعتراضها السفن التجارية المتجهة من جنوب البحر الأحمر إلى إيلات منذ اليوم الأول للحرب حتى نهاية الحرب . لقد كان العدو ينقل سنويا ١٨ مليون طن بترول من إيران عبر باب المندب إلى إيلات ، لاستخدام جزء منها ويعيد تصدير الجزء الأكبر منها إلى أوربا . وكان يستخدم لنقل هذه الكمية ٢٤ سفينة تجارية بأحجام كبيرة . ونتيجة لعمل القوات البحرية المصرية لم تدخل سفينة واحدة خليج العقبة .

وكان العمل البارز الثانى هو قيام قواتنا البحرية ببث حقول الألغام فى خليج السويس مع بداية العمليات . فقد فوجىء العدو بحقول الألغام ، عندما غرقت له ناقلة بترول حمولة ٤٦ ألف طن ، وغرق معها لنش إنقاذ حاول مساعدتها . كما تم بث كمائن من الألغام ضد العدو بالمنطقة ، الأمر الذى أدى إلى إصابة ناقلة أخرى حمولتها ٢٠٠٠ طن . لقد كان استخدام الألغام ضد العدو فى خليج السويس سلاحاً جديداً فى القتال بيننا وبين إسرائيل ، وسلاح الألغام سلاح خطير لما يحتويه كل لغم من كمية كبيرة من المفرقعات ويحتاج إلى مهارة ودقة كبيرة أثناء عمليات بثها . والنتيجة لهذا العمل الهام ، أن انخفض عدد السفن الإسرائيلية بشكل واضح ، وهى السفن التى كانت تنقل ٦ ملايين طن من خليج السويس إلى إيلات .

بهذه الأعمال أثبتنا للعدو والصديق عدم صحة إدعاء إسرائيل أن احتلاله لمنطقة شرم الشيخ منذ حرب يونيو يوفر لها أمن وحرية الملاحة عبر مضيق تيران — فى مدخل خليج العقبة — فضلاً عن تأثيره الواضح على اقتصاديات إسرائيل وموقف الإمداد بالبترول .

وظل هذا العمل طول مدة الحرب ، وكان مطلباً رئيسياً لإسرائيل — عن طريق هنرى كسنجر — عندما بدأ اتصالاته ومفاوضاته مع الرئيس الراحل السادات بعد إيقاف القتال ، أن توقف مصر نشاطها البحرى فى البحر الأحمر حتى تعود الملاحة إلى إيلات كما كانت من قبل .

نجح الهجوم مع اقتحام القناة :

وهكذا كان اليوم الأول للعمليات — ٦ أكتوبر ١٩٧٣ — يوما صعباً . فالبلاغات

لا تنقطع فى مركز عمليات القوات المسلحة ، والبداية طيبة وناجحة ، والمعارك مستمرة فى سيناء على الجانب الشرقى لقناة السويس . وفى نهاية هذا اليوم ، كنا نشعر بأن المعارك حسمت لصالح مصر . وكان لا بد أن نتابع أعمال القتال وتطورات الموقف ليلاً حتى صباح اليوم التالى ، حتى تكون الصورة قد اكتملت تماما .

قام العدو خلال الليل بهجمات مضادة ، وأمكن صدها ، إلا أن بعض الدبابات المعادية تمكنت من الاقتراب جداً من خط المياه وإطلاق نيرانها على وسائل العبور ، وكانت قوات المشاة المصرية تستخدم أسلحتها المضادة للدبابات والقنابل المضادة للدبابات فى تدميرها . وحتى صباح اليوم التالى لم تكن هناك قوات معادية قريبة من القناة تعرقل العبور .

وكان أشد ما يسعدنا فى ذلك الوقت ، هو الروح المعنوية العالية لكل القوات المسلحة ، والإصرار على تنفيذ المهام . وكان العنصر المعنوى الأول للنجاح هو الإيمان بالله ، الذى عبَّر عنه المقاتلون بنداء « الله أكبر » .

وفى صباح اليوم التالى — ٧ أكتوبر — كانت قواتنا قد نجحت فى الهجوم والعبور مع إقتحام أعقد مانع مائى ، وحطمت خطاً دفاعياً محصناً خلال ١٨ ساعة ، وأنشأت خمسة رءوس كبارى فى سيناء بواسطة خمس فرق مشاة وقوات قطاع بورسعيد بعمق ٦ — ٨ كيلومترات بعد خمس معارك هجومية ناجحة ، ورفعت الأعلام المصرية على أرض سيناء .

لقد تحقق هذا الانجاز بأقل خسائر ممكنة . فقد بلغت خسائرنا ٥ طائرات ، ٢٠ دبابة ، ٢٨٠ شهيداً . ويمثل ذلك ٢½٪ من الطائرات ، ٢٪ فى الدبابات ، ٣٪ فى الرجال ، وهى خسائر قليلة بالنسبة للاعداد التى اشتركت فى القتال .

وفى نفس الوقت خسر العدو ٢٥ طائرة ، ١٢٠ دبابة ،وعدة مئات من القتلى مع خسارة المعارك التى خاضها ، وسقط خط بارليف الذى كان يمثل الأمن والمناعة لإسرائيل ، وهزيمة الجيش الإسرائيلى الذى رددوا عنه أنه غير قابل للهزيمة .

□ □ □

ونتيجة لدراسة قام بها المؤرخ العسكرى[1] الأمريكى ت . ديبوى ، وهو معروف أنه من المقرَّبين للبنتاجون الأمريكى ، ومن أصدقاء إسرائيل ، كتب يقول :

« إن التخطيط الماهر الذى اتسم بالدقة الكاملة والسرية التامة وتحقيق المفاجأة الكاملة ، وكذا التنفيذ الكفء للخطط التى وضعت بعناية ، أدى كل ذلك إلى نجاح إحدى عمليات عبور الموانع المائية التى ستظل تذكر فى التاريخ .

بالنسبة للتخطيط لم يكن فى وسع أى جيش آخر أن يضع تخطيطاً أفضل من ذلك .

وبالنسبة للتنفيذ ، فإن التقارير المصرية تفيد أن خسائرهم أقل من ٢٠٠ شهيد فى اليوم الأول للقتال ، وكانت نتائجها أفضل مما توقع المصريون أنفسهم » .

أما الجنرال ديان وزير الدفاع الإسرائيلى ، فقد غضب عندما تبلغ له سقوط أحد الحصون المنيعة فى خط بارليف ، بعد أن دمرته قواتنا تدميراً كاملاً واستسلم ضابط وسبعة جنود إسرائيليين وكانوا أول أسرى يقعون فى أيدى قواتنا .

صرخ ديان بحدة وإنفعال فى وجه الياهو زعيرا مدير المخابرات العسكرية قائلاً :

« إنى أحملك مسئولية ما يحدث » .

وبنفس الحدة والانفعال صرخ فيه زعيرا قائلاً :

« لقد حذرتكم ، وكنت أنت تقول لنا دائما إنه من المستحيل أن يدخل المصريون أى حرب ضدنا أو عبورهم القناة ... وأنت وزير دفاع له شأنه ، لماذا لم تحس أو تشعر بأن حدثاً أو كارثة مخيفة سوف تحدث ؟ » .

وكلما مر الوقت ، ازداد تدفق القوات المصرية شرقاً لتعميق مواقعها فى سيناء ، وازدادت الخسائر الإسرائيلية . وعندما علم ديان أن أعداداً كبيرة من الدبابات والأسلحة المصرية الثقيلة لا تتوقف وتتحرك بسرعة للالتحام بالقوات الإسرائيلية ، صرخ قائلاً :

« لو لم أكن متأكداً أنه لم يبق خبير سوفيتى واحد فى مصر ، لقلت أننا نحارب روسيا نفسها » .

---

(١) ت . ديبوى – الانتصار المحيِّر – طبعة إنجليزية – ص ٤١٧ .
وقامت الهيئة العامة للاستعلامات المصرية بترجمته .

وقد أعجبنى ما كتبه الأستاذ أحمد بهجت[1] فى جريدة الأهرام تحت عنوان (٦ أكتوبر) قال :

" لقد فاجأت هذه الحرب المصريين كما فاجأت العدو .

لقد كانت قطاعات هائلة من الشعب المصرى كله تحس أن هزيمة يونيو كانت أعمق مما تظن .

كان الشعور الغالب على المصريين أن أحداً لن يتحرك ، وأن الهزيمة هى قدرنا النهائى الذى لا فكاك منه ، وكان اليأس يتزايد يوماً بعد يوم ... وحين بدا واضحاً أن كل شىء يسير نحو الهاوية ، تحرك الجيش وعبر قناة السويس .

وبدأت معركة أكتوبر ... وكانت دهشة المصريين مثل دهشة مخابرات العدو ، وكانت المفاجأة صاعقة حقاً ... وعادت للجيش المصرى سمعته التى لوثتها الهزيمة ، وارتد للمصريين إحساسهم بالكرامة .

كانت المفاجأة هي العنصر المادى الأول للنجاح . وكان الجهد الذى بذله ضباط الجيش وقادته ومفكروه وجنوده جهداً غير عادى ، وقد بذل هذا الجهد فى صمت تام ، وهكذا التقى عنصر الجهد بعنصر الكتمان ، وتعاونا معاً على شق مجرى العبور .

أما العنصر المعنوى الأول للنجاح فقد كان إيمان الجيش بالله ، ورفعه شعار « الله أكبر » .

ولقد كان هذا الشعور يعنى أن الله أكبر من الخوف والموت والحياة ... "

---

(١) أحمد بهجت – جريدة الأهرام – الذكرى العاشرة لحرب أكتوبر